الفصل الثاني

المرحلة الابراهيمية

صراع القوى الاجتماعية

بعد أن خرج الانسان من طفولته الغافلة، حيث كان يشارك بقية الأحياء في انتجاع خيرات عالم الحياة الطبيعية، وتقدم وعيه وامكاناته بدرجة كافية مكنته من استثمار هذا العالم وفقاً لرغباته المتناسبة مع امكاناته وجهوده، قام تقدمه المادي على الوفر الذي مكنه من التوسع في إنتاج القيم وتطوير وسائل وعلاقات الانتاج. ومن البديهي أن يكون التقدم في جميع أشكال الأنظمة الاجتماعية أسرع وأقل تعقيداً عندما يتكون ذلك الوفر الاجتماعي بالقيم بنتيجة توزيع لحجم الانتاج الكلي الاجتماعي تتجدد به جميع قوى العمل الاجتماعي بشكل كامل لا شح فيه ولا تبذير وتتجدد أيضاً وترتقي وسائل الانتاج. وهذا الأمر ينفي كل عطالة من كل شكل لقوى العمل، كما ينفي كل ما يسبب ضياع القيم دون ظهور ما يعوضها وهدر الطاقات الانسانية في سبل غير مفيدة اجتماعياً. ولكن الانسان بيقظته وخروجه إلى الحياة الفاعلة في الطبيعة لم يكتسب العقلانية في نشاطه الاجتماعي فكان تقدمه مشوباً بمعوقات جمة يأتي في مقدمتها قيام قوى اجتماعية عمياء تمارس قهر الناس في الوقت الذي تبدد فيه بفوضاها وأنانيتها وإسرافها حجوماً هائلة من القيم وتعطل ما لا يحصى من الطاقات الانسانية كان بالامكان وضعها كلها للتسريع في مسيرة عربة التقدم الاجتماعي وتوفير الكوارث والآلام الانسانية الفادحة. لقد كانت المسيرة الانسانية دوماً محصلة دفع قوتين عامتين اجتماعيتين متعاكستين: قوة الدفع نحو الحياة والتقدم وقوة التشبث بالوضع القائم والتجمد عند علاقاته. ومن الواضح أن التقدم في الحياة الاجتماعية يناقض العلاقات الجامدة في المجتمع في الوقت الذي تكون فيه هذه العلاقات ملائمة لأطماع بعض الجهات الاجتماعية. لذلك يقع التعارض بين دواعي الحياة في التقدم وبين أطماع تلك الجهات الاجتماعية في الجمود، فتنشأ من جهة قوى الثورة على القهر والجمود في مقابل قوى الأطماع والتشبث بما هو قائم.

والتقدم الاجتماعي الحضاري بما يولد من تراكم للقيم والثروات يولد أيضاً تلك القوى الاجتماعية الطامعة العمياء التي تسعى إلى الفوز بأكبر نصيب من انتاج المجتمع كما يولد بفيضها الثائر على أطماعها. ويزداد تعقد مجموعتي القوى هذه من الناحيتين المادية والروحية خلال المسيرة الحضارية. ويقوم الصراع بطبيعة الحال فيما بينهما في إطار نظام اجتماعي تقوم على إدارته تلك القوى المستفيدة الطامعة فتعمل على صيانة علاقاته المتناسبة مع درجة التقدم الحضاري فتمنع كل تغير فيها يضر بمصالحها. وفي أثناء التقدم المادي والصراع بين القوى الاجتماعية تقوم العقائد المحافظة تفرضها القوى المحافظة والعقائد المضادة يتسلح

بها الثوار على القهر والجمود. ونجد أن العقائد مثل العلاقات الاجتماعية تتطور وتنقلب بأشكالها بنتيجة التراكم، كما أن عقائد الثوار، إذ تشكل سنداً للجهاد في سبيل التحرر من وثنيات الجمود وما تجره على المجتمعات من شقاء، لا بد من أن تتصف بالانسانية ومن أن تكون صادقة فتتجه نحو الموضوعية.

إن المدنيات الانسانية الأولى توضعت في الأهليلج الخصيب، المحيط بصحارى الجزيرة العربية وسورية والعراق، وفي وادي النيل (إلى جانب توضعها في الهند والصين)، خلال آلاف السنين، فقامت وارتقت مختلف أوجه نشاطاتها المادية والروحية. وهذا المشرق العربي كان دوماً (ولا يزال) بموقعه يشكل مفترقاً للطرق العالمية ومنطقة للثروات. فكانت الامبراطوريات القديمة الكبرى لمنطقة البحر المتوسط تقوم فيه أو تنجذب إليه. وعندما كانت واحدة منها تنشأ خارجه في البدء، فإنها سرعان ما كانت تنجذب إليه لوقوع مركز ثقل الثراء والتقدم المادي عليه: تركت مثلاً الامبراطورية اليونانية موطنها الأصلي بلاد اليونان المتطرفة لتقوم في سورية والعراق ومصر. أما الامبراطورية الرومية، الأكثر تطرفاً في موقعها عند نشأتها فإنها لم تعش في روما كامبراطورية كما عاشته طويلاً في القسطيطينية الأقرب إلى مركز ثقل التقدم الحضاري في المشرق العربي. هنا باختصار أرض اللبن والعسل التي جذبت إليها مختلف الأطماع الداخلية والخارجية بطروحاتها وتعلّلاتها الوثنية.

نشوء العقائد في الحضارات

تقول «قصة الحضارة»: «صار الآلهة في آخر الأمر بشراً، أو بعبارة أصح: أصبح البشر آلهة. فلم تكن مثلاً آلهة مصر من الآدميين إلا رجالاً متفوقين أو نساء متفوقات خلقوا في صور عظيمة باسلة، ولكنهم خلقوا من عظام وعضلات ولحم ودم، يجوعون فيأكلون، ويظمأون فيشربون، ويحبون ويتزوجون، ويكرهون ويقتلون، ويشيخون ويموتون...». أي أن الآلهة في طور الرق تعبر في الواقع عن أكثر النماذج شيوعاً في طبقات السادة قادة مجتمع هذا الطور، وكانت في ذات الوقت ترمز إلى مختلف القوى الطبيعية والاجتماعية وإلى القوى الخفية. فتجسيد الآلهة بالسادة قادة مجتمع الرقيق ما كان فقط يرفع من سلطة أولئك السادة ليصبحوا آلهة تتحكم بنظام مجتمعهم وإنما أيضاً يرفعهم إلى مصاف الشموس والنجوم وقوى الطبيعة التي لا تغلب.

إن قيام عالم ما وراء الطبيعة ما كان بسبب أن القوى الرجعية افتعلته لتستفيد منه فبنت غيبيات تساندها في التحكم في النظام الاجتماعي، وإنما كان بسبب ضيق عالم المشاهدة الانسانية. يقول الفيلسوف الانجليزي فرنسيس بايكون: «إنهم (العلماء) يحولون عجز علمهم إلى تشهير ضد الطبيعة». ولكن الغائب واقع إلى جانب الحاضر، تماماً كمجاهيل المعادلة تكتب إلى جانب معاليمها برموز تملأ إلى حين الفجوات الحاصلة من جراء غيابها في الصورة الذهنية للمسألة، فعلينا انتظار حضور ذلك الغائب ومشاهدته كما ننتظر حل تلك المعادلة لتبرز قيم مجاهيلها. فنجد أن الانسان البدائي وقد ضاق عالمه المادي المحسوس قد ضاق أيضاً عالمه الغائب فلم يتضمن هذا العالم سوى قوىً بسيطة غامضة تتقاسم ما ينفعة وهو الخير بالنسبة إليه وما يضره وهو الشر. ثم اتسع العالم المادي المحسوس وتشعب وتعقد واتسعت معه مدارك الانسان. وبالتالي اتسع مفهوم العالم وتشعب وتعقد عند هذا الانسان. فكان ذلك المفهوم في الحقيقة تمثيلاً رمزياً للواقع المادي المحسوس

وغير المحسوس أو، بالأحرى، انعكاساً لهذا الواقع المادي في روح الانسان الفرد وفي روح المجتمع. فقام في هذا التمثيل إلى جانب صورة المحسوس صور رمزية لغير المحسوس، قام الغيب بالضرورة كرمز للمجهول الكبير الذي يتضمن الواقع في ماضيه وحاضره ومستقبله. ومن الطبيعي أن تتطور هذه الصورة الروحية بشقيها المحسوس وغير المحسوس مع تطور المجتمع الانساني فتنشأ بتلك البساطة البدائية المشار إليها آنفاً وترتقي باتساع الادراك الانساني فتتماسك وتتكامل بلا نهاية وتزداد جمالاً وإن لم تزدد صحة وواقعية. وبالاختصار فإننا نجد أن لكل طور إنساني صوره الروحية المناسبة لدرجة تقدمه وعلى هذه الصورة العامة تُبنى عقيدتان أساسيتان:

الأولى: عقيدة الرجعيين الوثنيين، وهي العقيدة المفروضة بالوسائل المناسبة لتجميد النظام القائم في حدود مصالح القوى قائدة هذا النظام ففي أنظمة الرق مثلاً نجد أن السادة يجعلون من طبقتهم تجسيداً لعالم الآلهة فيتحكموا بنظام المجتمع ومصائر الناس، ومن الآلهة تجريداً لهم ورمزاً لخلود نظامهم. أما في الطور الرأسمالي فقد أصبح النظام الذي يفرضه الرأسماليون إلهاً وثنياً للناس أو أن الاله جعل حارساً لهذا النظام. ونجد على العموم أن الآلهة تتعدد في أنظمة القهر فيكون لكل فئة، بل لكل فرد، الهه الساهر على مصالحه الأنانية: نجد مثلاً أن الرأسمالي الملحد يرى أن المصلحة العامة تتحقق من خلال تحقق مصالحه الخاصة. ونجد التعبير عن هذا الأمر بأوضح لغة في مثال صاحب احتكار سيارات كارايزلر الأمريكية عندما قال في الخمسينات من هذا القرن: أن ما هو جيد للكرايزلر جيد من أجل أمريكا. أما المتدين الرأسمالي فإنه يدعو ربه ليساعده في التغلب على منافسه في السوق، بالباطل وبالحق، فهذا الرب بهذا التحيز لا يمكن أن يكون إلهاً لكل الناس. ونجد في النتيجة أن الاله في هذا النظام العبودي، المنقسم إلى عدد من الأنظمة المتضاربة بعدد الرأسماليين المتنافسين، متعدد أيضاً وإن اتسع ملكوته عند كل فرد ليشمل الكون بأجمعه. فإذا انتبهنا إلى ما يفرضه هذا النظام الرأسمالي على الانسانية من مبادىء وقواعد جامدة، وهي القواعد والمبادىء التي تحلل الاحتكار مثلاً على حساب موت وتشريد ملايين بني الانسان وإثارة الحروب العدوانية وتجويع العالم إلا القلة «المحظوظة» منه ونظرنا إلى مؤسسات وكهنة الرأسمالية الذين يحرقون البخور في مديحها والصلوات لألهتها فإننا لا نجد إلا التحجر والوثنية الخالية من كل روح انسانية.

الثانية عقيدة الثوار الموحدين الذين يجاهدون في سبيل تدمير نظم العدوان على الناس وقهرهم. ففي طور الرق مثلاً قاوم الثائرون نظام العبودية بإنكار عالم الآلهة وانكار طبقه الأسياد التي تجسد هذا العالم المزيف وتظلم البشر بعقائده، وبالايمان بإله واحد يتساوى الناس ويتآخون في ملكوته. ونجد في النتيجة: إن النفس الانسانية عند بنائها في حدود هذا المفهوم للتوحيد، وبالتالي عند تحقق تعاون الناس وتكافلهم في حياتهم مع انتفاء كل عدوان وقهر عليهم من قبل فئات منهم، عندئذ وما دامت هذه أحوال الناس على العموم فإن المجتمع الانساني يحقق أقصى سرعة في تقدمه مادياً وروحياً فالانسانية في مثل هذه الأحوال لن تبدد الوفر المتحقق في مجتمعاتها ولن تضيع عبثاً شيئاً من الطاقات الاجتماعية في أذية البشر أو فيما لا نفع فيه في الوقت الذي يصبح فيه تجديد كل قوى العمل الاجتماعية محققاً بأوسع وأسهل سبيل مع رفع سوية هذه القوى باستمرار بما يتحقق من امكانات مادية وروحية في تلك المجتمعات.

ابراهيم هو مرحلة ثورية تاريخية

قلنا أن منطقة المشرق العربي كانت (وما تزال) أرض اللبن والعسل ومفترق الطرق العالمية فقامت فيها الحضارات الانسانية منذ العديد من آلاف السنين وتنامت ثرواتها وعظمت كنوزها الاسطورية فغدت دوماً هدفاً لأطماع قوى العدوان والتسلط والقهر الداخلية والخارجية منذ أقدم عصور التاريخ. وفي مقابل هذا الواقع قامت ثورات التوحيد الكبرى التي قادها أنبياء العرب ورسلهم العظام والتي أحصى منها القرآن الكريم خمسة وعشرين دعوة وأشار إلى أخرى عديدة مثلها (أو أقل شأناً منها) لا فائدة من احصائها ورواية أخبارها بعد أن أعطت تلك المحصية كل العبر والأمثلة الكافية لبناء عقيدة المؤمنين المجاهدين. قام إذن عدد لا يحصى من ثورات التوحيد في المشرق العربي فتشابهت أخبارها وتداخلت حتى اختلطت أسماؤ ها وأزمانها. ولكن علينا أن نخالف آراء الوثنيين المحاكين الذين يجعلون من الكتب المقدسة كتب تاريخ وعلوم رياضية وفيزيائية في الوقت الذي هي فيه كتب عبر وعقائد. ولعلنا لا نكون بعيدين عن الحقيقة عندما نقول أن سيرة أبي الأنبياء ابراهيم الخليل (وهي عملياً أقدم مسيرة جهاد اجتماعي وعاها التاريخ بتفاصيلها) ما هي في الواقع إلا أخبار مرحلة كفاح طويلة شملت المشرق العربي كله فبدأت فيما بين النهرين من مدينة «كوثة» الكلدانية (الكوثة لغة الخصب والكثرة ومنها الكث والكثيف والكوثر وتصغيرها الكويت التي لا يبعد موقعها الحالي كثيراً عن موقع كوثة التاريخية). وانتهت في حبرون الخليل في فلسطين مروراً بحران ومصر والحجاز. وقد دامت زهاء قرنين، المدة التي عاشها الخليل بحسب رواة أخبار سيرته المذكورة. ومما لا ريب فيه أن أبا الأنبياء ابراهيم كان رمز مرحلة الكفاح هذه ونجمها الساطع فذاع صيته وخلد اسمه كبطل قاوم الوثنية بدءاً من تسفيه سخافاتها في عبادة الأصنام لينطلق من بعد إلى الجهاد من أجل تحرير الانسان والكف عن التضحية به على مذابح الوثنية والاطماع الدنيئة. وأتى بعده أبطال نسجوا على منواله في تلك المرحلة فغابت أسماؤ هم ولم تغب أعمالهم التي بقيت وأطالت من عمر الخليل رمزهم الأكبر فجعلته في أخبار الرواة يبلغ القرنين. وامتدت هذه الدعوة الابراهيمية كذلك في المكان، كما امتدت في الزمان، فبلغت الحجاز كما قلنا. وانتسب القرشيون سدنة عقائدها إلى رسولها فظل الناس هناك يحترمون ذكراها ويقدسون معتقداتها التي اختلطت بوثنيتهم فجعلت منهم أصحاب عقيدة ثنائية وثنية توحيدية كما جاء في القرآن الكريم في سورة الزمر: ﴿وما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى﴾، وفي سورة العنكبوت: ﴿ولئن سألتهم من خلق السماوات والأرض وسخر الشمس والقمر ليقولن الله فأنى يؤفكون﴾. ثم إن القرشيين نسبوا البيت العتيق إلى أبي الأنبياء ابراهيم.

موقع المرحلة الابراهيمية في تاريخ المنطقة

إن أخبار المرحلة الابراهيمية تبرز لنا صوراً كان قيامها شائعاً في مجتمعات طور الرق، وتأتي فيها صورة الهروب الجماعي للمضطهدين في المقدمة. فالهروب الفردي للرقيق أو المضطهدين كان على العموم. بحكم المستحيل لقلة وسائل تلك الأيام وصرامة قوانينها بهذا الخصوص ولحاجة الفرد إلى الانتماء إلى عزوة تحميه. ثم إن الثورة ضد ممارسي قهر الناس لا بد من أن تكون جماعية فتنتصر ويتعدل نظام القهر، أو أن الثوار يحاولون الخروج بالقوة من منطقة قاهريهم إلى منطقة أخرى بعيدة صعبة المنال كالجبال المنيعة أو الواحات في أعماق الصحارى. ومثال هذا في طور الرق نراه في حركتي موسى الذي خرج بكتائب الأسباط عنوة من مصر إلى

سيناء أولاً، وسبارتاكوس الذي حاول الابتعاد عن روما بالقوة بجحافل العبيد والمضطهدين المنظمين. ونراه أيضاً في أخبار المرحلة الابراهيمية الآنفة الذكر التي تنبئنا عن جدل وصراع قاما بين نمرود وثائر لكرامة الانسان الممتهنة بالخضوع لأصنام من حجر لا تمثل إلا تلك الأصنام أسياد الرقيق، وانتهى الأمر بالقاء الثائر في النار، التي عجزت عن قتل ما هو قائم نتيجة لزخم دواعي التقدم الانساني في مواجهة سدود الطغاة، فكانت هذه النار (وما تزال) برداً وسلاماً والوسيلة المثلى لشحذ أدوات الكفاح والتقدم. ونجد بعد هذه اللوحة في مسلسل الثورة الابراهيمية أن هذه الثورة تنتقل إلى حران في أقصى شمال ما بين النهرين ومن هناك تهبط إلى مصر في أقصى الجنوب، ثم إلى فلسطين فالحجاز بعيداً في الواحة المكية. وعند النظر عن قرب إلى تواريخ خطوات هذه المسيرة التي طالت مدة قرنين بحسب أخبارها نجد أحداثها أو نتائج هذه الأحداث تكاد تتطابق مع أحداث تاريخية مؤكدة شهيرة. ولنستعرض لذلك فيما يلي الصورة العامة لأحداث منطقتنا في تلك الحقبة التاريخية.

كانت تفاعلات مختلف أصول الأمة العربية في الأهليلج الخصيب وفي وادي النيل نشطة طوال عهود طور الرق وعلى الأخص في العهود التي أتت بعد الألف الرابع للميلاد. تقول قصة الحضارة: «... كانت المنطقة تبدو للعين الفاحصة كأنها بحر خضم يتلاطم فيه خليط من الآدميين يأتلفون ثم يتفرقون، يستعبدون ثم يُستعبدون، يأكلون ويؤكلون، يقتلون ويُقتلون إلى غير نهاية.. وأخذت بعض الدول في بحر الأجناس تتشكل، ثم قامت الامبراطوريات ومن ورائها وحولها خليط من الأقوام البدوية..». وشهد وادي النيل الدولة القديمة وعاصمتها ممفيس بملوكها من الأسرة الأولى إلى الأسرة العاشرة مع اهراماتها الشهيرة خلال القرون المنقضية بين ٣٣٠٠ ق.م - ٢١٦٠ ق.م، ويقابلها فيما بين النهرين سلالة «اور» السومرية (٣٠٠٠ ق.م)، والامبراطورية الأكدية التي استوعبت السومريين (٢٦٠٠ ق.م)، والسلالة العيلامية في سوس (عربستان حالياً)، وتأسيس بابل من قبل الكلدانيين (٢٣٠٠ ق.م) وأتى عهد الدولة الوسطى في وادي النيل وعاصمتها طيبة من ٢١٦٠ ق.م - ١٧٣٠ ق.م.

ويقابلها فيما بين النهرين الامبراطورية البابلية الأولى من ٢١٠٠ ق.م - ١٧٠٠ ق.م، وأشهر ملوكها حمورابي. واجتاح الهكسوس وادي النيل وأسسوا دولتهم هناك التي دامت من ١٧٣٠ ق.م - ١٥٨٠ ق.م. كما اجتاح الحوريون ثم الحثيون أراضي ما بين النهرين في ذات الفترة. وخلال كل الفترات السابقة لا سيما منها التي وقعت من النصف الأول من الألف الثالثة قبل الميلاد حتى النصف الأول من الألف الثانية قبل الميلاد، كانت هجرات الأقوام الآتية من الجزيرة العربية تتدفق بلا انقطاع على مناطق الهلال الخصيب ووادي النيل: هنالك مثلاً نقش مصري يمثل طليعة قبيلة كنعانية أو عمورية آتية من شمالي جزيرة العرب مهاجرة إلى مصر في زمن الفرعون سيزوستريس الثاني حوالي عام ١٩٠٠ ق.م. وفي المقابل كانت جماعات الثوار على النظم القائمة في مصر والعراق وسورية في تلك الحقب التاريخية تذهب لتلجأ بعيداً في واحات الجزيرة العربية كما تقصه علينا أخبار المسيرة الابراهيمية المعروفة.

كان من أقدم الهجرات الآتية من الجزيرة العربية نحو الهلال الخصيب تلك التي قام بها الكنعانيون الذين استوطنوا سورية الطبيعية من جبال طوروس شمالاً حتى مصر والجزيرة العربية جنوباً، ومن البحر الأبيض المتوسط غرباً حتى الصحارى السورية شرقاً. وقد أقام الكنعانيون المدن في هذه الأراضي وأسسوا

الـدول وشـادوا أقـدم الحضـارات فكـان منهم الفنيقيـون على سـاحـل البحـر الأبيض المتـوسط، واليبوسيون وعـاصمتهم يبـوس، أي القـدس، ودول نابلس (شكيم) وجـازر ودمشق وغـيرها. والكنعانيون هم أول من اكتشف النحاس وازدهرت صناعته عندهم منذ ما قبل الألف الثالثة قبل الميلاد، ثم اكتشفوا البرونز في حوالي الألف الثـالثـة قبـل الميـلاد وصنعـوا منه أدواتهم وأسلحتهم. وتقدموا في فن البناء، وارتقت عندهم صناعات العاج والزجاج والنسيج على أنواعه والأواني الفخارية والأصباغ، لا سيما منها القرمزي الذي سمي باسمهم «كنعان». واشتركوا مع المصريين في تطوير الأبجدية والتعداد العشري. وقد شمل نشاطهم التجاري، على يد فرعهم الفنيقي، كل العالم القديم تقريباً.

وكـانت هنـاك، في أثنـاء هجرات الكنعانيين وربما قبلها، هجرات العموريين العمالقة الذين تمركزوا في بداية الأمر في الأقسام الشمالية من الهلال الخصيب، ثم أخذوا في الانتشار في أواسط سورية ولبنان وفلسطين. وكان تقدمهم على الأخص في اتجاه الجنوب على نهر الفرات حيث أسسوا مدينة ماري على بعد ١٥ كم من البوكمال واتخذوها عاصمة لهم حيث غدت من أعظم مدن المنطقة التجارية. وتقول الأخبار الابراهيمية أن أبا الأنبيـاء مر بها في طريقـه من «اور» إلى «حـران» في القـرن التـاسع عشر قبل الميلاد. وقد أطلق البابليون اسم عمـورو على سوريـة وعلى جهـة مغرب الشمس، كما سموا البحر الأبيض المتوسط البحر العموري العظيم. ويشـاهـد اليـوم على الجـانب الأيسر من نهر الفرات أمام تل الحرير (ماري) تل أثري اسمه «تل باغوز» يرجع تاريخـه إلى الألف السـادسـة قبـل الميـلاد ويـرجـح أنه من آثار العموريين أو أنهم ورثوا حضاراته. وقد أسس العموريون عدداً من الدويلات تمتد من آشور شمالاً إلى]لارسا» و«ايسن» (التي قامت بابل عليها) جنوباً. وقـد ضمت الامـبراطـورية البابلية الأولى، وهي التي أسسها العموريون أيضاً ومن ملوكها حمورابي الشهير، كل هذه الدول في النتيجة. وعبد العموريون آلهة المياه، واشتهروا بتقدمهم في هندسة الري فأقاموا في وادي الفرات شبكات الأقنية الواسعة.

وأتت هجرات كبرى ثالثة من الجزيرة العربية وهي هجرات الآراميين الذين يشكلون عدداً من القبائل والفـروع التي منهـا «الأخـلامـو» و«العبـيرو». ويقـول المؤرخ كروهمان في بحثـه عن أصـل العـرب: «إن من المؤكـد أن العنصر العربي في شبه جزيرة العرب وجد في الأصل في المنطقة الممتدة بين سورية وبلاد ما بين النهرين التي تعد أقدم مركز للعرب الساميين ومن المرجح أن مصطلح «العرب» مرادف لتسمية «آرام» و«عبيرو». وعبيرو تعني الرحل أو المهاجرين أو العابرين. وقد ورد في المودنات المصرية ما يشير إلى هذه الأقوام منذ الدولة الأولى في نحـو ٣١٠٠ ق.م. وذلـك تحت اسم «سـوتو او سوتيو» أي الرحل. واشتهرت هذه الأقوام بتعاطي التجارة حتى قيـل أنهم احتكـروهـا في النتيجـة في منطقـة الأهليلج الخصيب. فانتشـرت لذلك اللغة الآرامية انتشاراً واسعـاً في كل المنطقـة وبلغت الأنـاضـول وفارس والهند. وكانت لغة السيد المسيح. وبقيت منتشرة في الهلال الخصيب حتى الفتح الاسلامي. وتقول الأخبار الابراهيمية أن أبـا الأنبياء كان آرامياً. ولكن الأصح الأرجح أن الآرامية عند اكتمال القصة الابراهيمية في تطورها في الأدب الشعبي المتوارث في عصر كتابة التوراة، بل قبل هذا العصـر، كانت قد استـوعبت في مفـاهيم النـاس كل الفـروع العـربيـة الأخـرى، لا سيما منها الكنعانية والعمـوريـة: لقـد قلنـا قبـل هنيهـة أن اللغة الآرامية، والحضارة الآرامية انتشرت وعمت الأهليلج الخصيب ووادي النيـل. فنجـد اذن أن تلك الآراميـة، كما يفهم من كلمـة المؤرخ كروهمان الآنفـة الـذكـر، أصبحت

مصطلحاً يدل على كل عربي، كنعانياً كان أو عمورياً أو غيره. ونتيجة لذلك نسبت القصة الابراهيمية أبا الأنبياء إلى الآراميين. والواقع، كما سبق وقلنا، أن ابراهيم هو مرحلة تاريخية دامت قرنين فبدأت بثورة قادها بطل كلداني ضد نظام فاسد هو نظام النمرود، أو قبله أو بعده، إذ المهم هو الحادث الذي افتتح المرحلة التاريخية قبل الميلاد بنحو تسعة عشر قرناً. وقد ضحى هذا البطل بحياته في سبيل دعوته التي أثمرت مع ذلك وولدت أخريات على غرارها دفعت بالانسانية قدماً طوال قرنين من الزمن في طريق الارتقاء القائم على توحيد النفس البشرية في وحدانية الاله وتحرير الناس بمؤاخاتهم: نقول ضحى هذا البطل بحياته وبقيت دعوته فهو ميت بجسمه على كل حال كغيره من البشر ودعوته هي الخالدة فلا ترتبط بتاريخ معين لوفاته. ولعل من المفيد أن نشير بهذه المناسبة إلى أن القرابة العصبية لمختلف قادة ثورات التوحيد ضد وثنية الرق ليست ضرورية ولا مفيدة في كل الأوجه، والمهم أن أولئك الأنبياء والرسل ساروا على نهج واحد وطوروا عقيدة ذات جوهر واحد هو خلاص الانسان وتحرره من الاستعلاء والتكبر وتآخيه في ذات الإله الواحد، ساروا على الصراط المستقيم، فغدت دعواتهم في منطقتنا سلسلة متماسكة الحلقات، وإن جعلت القصة الابراهيمية لأكثرهم أباً واحداً هو أبو الأنبياء ابراهيم الخليل وهو في الواقع أبوهم الروحي. وقد أكد القرآن الكريم على هذا المعنى فأعطى الأهمية الحاسمة للقرابة الروحية في سورة هود: ﴿. . **ونادى نوح ابنه وكان في معزل يا بني اركب معنا ولا تكن مع الكافرين. قال سآوي إلى جبل يعصمني من الماء قال لا عاصم اليوم من أمر الله إلا من رحم وحال بينهما الموج فكان من المغرقين. . . ونادى نوح ربه فقال رب إن ابني من أهلي وإن وعدك الحق وأنت أحكم الحاكمين قال يا نوح إنه ليس من أهلك إنه عمل غير صالح. .**﴾.

إن المرحلة الابراهيمية لا تقع بعيداً عن الأزمات المتولدة بقيام عصر البرونز الوسيط، حيث قامت الحروب بين الدويلات العمورية المذكورة أعلاه لا سيما منها الحروب بين المدينتين «لارسا» و«ايسن» ثم قيام الدول البابلية الأولى. وكذلك قامت مصر بشن حملات على الكنعانيين في سورية في عهد سنوسرت الثالث بينما كان النوبيون لا ينقطعون عن مهاجمة مصر من الجنوب في بدء المرحلة الآنفة الذكر. أما في أواخر هذه المرحلة فقد قام حكمان متقدمان نسبياً وقريبان في عقائدهما من عقائد التوحيد هما:

١ـ ـ حكم حمورابي في فترة ١٧٣٠ ق.م ـ ١٦٨٥ ق.م ـ في بابل.

٢ـ ـ حكم الهكسوس في مصر ما بين ١٧٣٠ ق.م ـ ١٥٨٠ ق.م.

إننا نجد قوانين حمورابي تُفتتح بأمر من السماء، بأمر من «انو» و«بعل»، وتُختتم بالتأكيد على حماية الضعفاء من بني الانسان دون تمييز، وذلك دون سرد أساطير الآلهة ومباذلها وصراعاتها فيما بين بعضها بعضاً، وفيما بين بعضها وبعض بني الانسان التي اعتادت على الاتيان بها حكايات الوثنيين حول ما وراء الطبيعة. وبالتالي نجد لأول مرة في تاريخ الانسان المدون اهتمام السماء بمصير الانسان ككل وليس بحكايات وتوافه وخرافات طبقة أسياد الرقيق قاهري الضعفاء. أما الهكسوس (الذين أتوا إلى مصر حاملين حضارة متقدمة هي حضارة العصر البرونزي الثاني المزدهرة في سورية حينذاك) فقد كانوا أيضاً كما قلنا قريبين من عقائد التوحيد. فأحد ملوكهم مثلاً، في خضم الفرعونية الوثنية القديمة، وهو الملك «أبوقيس»، أمر بأن لا يُعبد إلا إله واحد فقط هو «سوتخ» الذي أصبح يذكّر ويرمز إلى الاله القديم «أيل» معبود الأقوام العربية القوى الأكبر. والخلاصة أننا نجد في الحكمين المذكورين، الحكم البابلي فيما بين النهرين وحكم الهكسوس في مصر، نتيجة

صراع كبير بين قوى التوحيد والتقدم من جهة وبين قوى الوثنية والجمود من جهة أخرى طوال المرحلة الابراهيمية، وعلى أرض المنطقة بأجمعها من النيل إلى الفرات، الصراع الذي تبع سنن التاريخ حيث ينتصر التقدم على الدوام بانتصار الحياة على الموت، تنتصر الثورة أبداً على التخلف: أو أننا نرى بالأحرى أن الحكمين الآنفي الذكر نشأ كواقع بنتيجة تلك الثورات التوحيدية فكتبت أخبارهما فيما بقي ودام من «مدونات رسمية» لتلك العهود، بينما عبر الوجه الآخر، عبر القصص الشعبي لتلك الثورات، عبرت أخبار أبطالها، أخبار رسلها وأنبيائها، عن أكمل طموحات انسان تلك الأيام في الخلاص والتقدم والحياة الأفضل لبني الانسان.

البيت العتيق

قلنا أن الروافد العربية الأولى، بعد أن ارتقت وسائل الانتاج في مجتمعاتها بقدر كاف وتشعبت وتطورت قسمة العمل والاختصاص في الانتاج، مارست التجارة في كل منطقتها الموصوفة أعلاه ومع العالم القديم، فجعلت من منطقتها تلك عقداً وسيطاً لمختلف مناطق هذا العالم تمر فيها القيم والثروات جيئة وذهاباً. وقد أدركت جيداً في خضم تنافس وحروب عهود الرق الأهمية الحاسمة لتأمين وتنظيم التعامل بين الناس على اختلاف أقوامهم في الأسواق. فرفعت حسن التعامل وصحة قواعده ومواثيقه إلى مرتبة القداسة وطقوس العبادات. ونجدها قد أقامت منذ أقدم عصور التاريخ معابدها إلى جانب أسواقها ليس فقط لتسهيل أداء فروض العبادات بتقريب بيوتها من مكان تعامل الناس وإنما أيضاً لحماية نظام التعامل وقواعده بسلطان الآلهة وسلطان تجسيدها سادة المتعاملين على اختلافهم. وكأن السوق بهذا الترتيب امتداد للمعبد في جوهره، وكأن نظام التعامل فيه امتداد لطقوس التعبد: بل إن حسن التعامل في الاسلام تعبد، فهو يقول أن الدين المعاملة، وشرائعه قامت على ركنين متساندين هما ركن العبادات وركن المعاملات وقواعد الركنين ضبطت بالحلال والحرام. وقد أخذت الكعبة عند الأقدمين في مكة أقدس شكل هو شكل المكعب البسيط التام الأبعاد ومستقيمها، وتضمنت أصنام ومعبودات مختلف الأقوام العربية وغير العربية التي كانت تأتي إلى الأسواق المجاورة للاتجار. فكان فيها مثلاً أصنام لتلك الأقوام بعدد أيام السنة وفيها أيضاً بِيَعٌ لليهود والنصارى. وكان للأسواق شيوخها يراقبون حسن سير العمل فيها ويقومون على حل المشاكل والخلافات التي قد تنجم بين مرتاديها. وكان أهل الدار التي يقع فيها السوق يسهرون على أمنها وعلى ايصال كل ذي حق إلى حقه. فقبل البعثة المحمدية مثلاً قام «حلف الفضول» بين نفر من قادة مكة تعهد بموجبه المتحالفون بإنصاف كل مغبون في السوق وتعويضه خسارته. كذلك كانت تقوم حول الأسواق الموسمية أنواع المباريات الرياضية والفكرية كسباق الخيل والمصارعة والرماية وتناشد الأشعار وندوات الخطابة ورواية أخبار الأقدمين وغيره. كما كانت تمنع الحروب لتسهيل سير القوافل في عدد من أشهر السنة كالأشهر الحرم عند عرب الجزيرة وهي ثلاثة متوالية: ذو القعدة وذو الحجة ومحرم، وشهر منفرد هو رجب.

وكان من الطبيعي أن تقر ثورات التوحيد احترام التعامل الأخوي بين الناس، احترام المجتمع وحقوقه. ولكن موقف التوحيد يختلف عن موقف الوثنية في هذه المسألة فهو يوكل إلى كل فرد بعد بناء ايمانه بعقيدته الانسانية، وبالتالي يوكل إلى جماهير المؤمنين، أمر تحقيق العلاقات الأخوية وتحقيق التكامل والتكافل

العادلين وحسن السلوك في التعامل بين الناس، وكان المعبد وحده، دون السلطة، يسهر على هذه الأمور ويرعاها عندما كان المؤمنون يؤمونه طوعاً بدافع من عقيدتهم وتربيتهم النفسية. ثم أن اليونان، بعد أكثر من عشرة قرون طور العرب خلالها نظام هياكلهم وأسواقهم ومواسمهم، قلدوا هذا النظام ونسجوا على منواله فأقاموا موسم الأولمب بهيكله وسوقه وعيده تماماً كما كان العرب يفعلون في عكاظ. ولكن المستعمرين الأوروبيين الحاقدين لم يتذكروا سوى الأولمب ونسوا الأقدم والأكمل عكاظ وجاراهم في هذا الحمقى والجهلة من أمتنا وملتنا.